إزاء هـذه المواقـف والأحـداث كان ولا بد من موقـف لعالمنا النورسي، يعبر عن وجهته الإصلاحية التى قد نذر نفسـه لها، وهذا ما سـنحاول إلقاء الضوء عليه في الصفحات القادمة؟

موقف سعيد النورسي الإصلاحي:

أشرنا آنفًا إلى لحظة السـقوط الحضـاري - في رأي النورسي - التى تعانيها الحضارة الإسلامية فذهب يشخص الداء والدواء.

ففـي البدايـة يضع مفكرنـا يده على أس الـداء والبلاء في هـذه الحضارة فيقول: إن الحضارة الأوروبية المؤسسة على أسس فاسدة والتي تدعي أن كل ما أتاها هو من عندها كادعاء قارون في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: 78]. فلا تشكر ربها التي أحسن إليها بفضله وكرمه تعالى، والتي رجحت كفة سـيئاتها على حسـناتها حيث سـقطت في الشرك بفكرها المـادي الملوث. إن هذه الحضارة تلقت صفعة سـماوية قوية بحيث أباحت محاصيل مئات السنين من رقيها وتقدمها.[1]

هـذا في الوقـت، الذي يشـير فيه النـورسي إلى بعض سـمات الحضارة الإسـلامية، فهـي حضـارة أخلاقية لأنها تحقق العدالة، وتنشـئ السـلام، وهدفها تأصيل الفضيلة، كما أنها حضارة إنسـانية لأنها تسـعى إلى تحقيق الخير للبشريـة جميعًا بدلًا مـن التوجه لتحصيل منافع فرديـة أو عرضية، تقوم على تعميق أسـس التعاون بدل الخصـام، وتقوية أواصر الاتحاد بدلًا من الصراع. وهي حضارة إيمانية لأنها تنور المجتمع بهدي الله، وتكف عن

(1) بديع الزمان: الملاحق (7)، ص109.

سـلطان الأهواء، كما أنها حضارة متوازنة لأنها تتخلى عن السـعي لتحقيق الرقي والرفه المادي.[1]

فالنـورسي، يرى أن مفهـوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقـدم، فالحضارة - كما نلاحظ من خلال رسـائله- نقلة تقدمية بـكل مما تحمل هذه الكلمة من معـنى: تقدمية في الفكر وفي السـلوك وفي أسـلوب التعامل مـع الناس ومع الأشياء. وهذا كله في إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلي إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والرحب.[2]

والحضـارة ذات طبيعة مزدوجـة، أي: أن لها جانبًا ماديًـا وجانبًا روحيًا، ومـن هنا عرفها «البرت اشـفيتسر» في كتابه فلسـفة الحضارة بـأن الحضارة تعني: التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء.[3]

من أجل هذا الفهم المتسـق للحضـارة في جانبها الروحـي والمادي ينعي النورسي ويتأسـف لمكانة الإنسان في هذه الحضارة، فلقد بين مفكرنا إنسان هذه الحضارة المتطبع بطابعها والمتسـم بسماتها غير الحميدة مثالًا واقعيًا على عدم سـلامة المنهج الفكري الذي يتبناه الغرب. إنه إنسـان مزدوج مشـتمل على ثنائية مهلكة وتقابل حاد بين خطين من خطوط الشعور المتعارضة فهو «فرعـون» طاغية على غيره مـن إخوانه في البشرية، رغـم دعاوي الحضارة والديمقراطية واحترام حقوق الإنسـان، لكنه في التعامل مع أهوائه «ذليل»، ذلة عبد وثني يرتكس في عبادة «أخس الأشـياء» تدمره المخدرات ويصرعه

(1) النورسي: الكلمات، ص 855 - 856.
(2) د. محمود حمدي زقزوق: هموم الأمة الإسلامية، ص22.
(3) ألبرت اشفتيسر: فلسفة الحضارة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ص34.

الإيدز ويموت مجانًا تحت عجلات الآلة الإنتاجية الرهيبة ببطء وتفتك به الأمراض النفسية أو تدفعه إلى الانتحار السريع، إنه إنسان متمرد على الوجود الجميل وخالقه الجليل لكنه « مسكين» عاكف في محراب لذائذه القاتلة، فهو لأجل لذة تافهة يُقبل قدم الشيطان.[1]

يقارن النورسي بين الإنسان أو تلميذ القرآن و إنسان الغرب في غايته ومقاصده، فيقول: وكذلك يمكنكم أن تقيسوا مدى الفرق الهائل بين تلاميذ الفلسفة السقيمة، وتلاميذ القرآن الحكيم من حيث مدى التضحية والفداء في كل منهما بما يأتي:

إن تلميذ الفلسفة يفر من أخيه أثرة لنفسه ويقيم عليه الدعوى. أما تلميذ القرآن فإنه يرى جميع عباد الله الصالحين في الأرض والسماوات إخوانًا له ويشعر من أعماق روحه بأواصر شوق تشده نحوهم. فيدعو لهم دعاء خالصًا نابعًا من صميم قلبه «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات» فهو يسعد بسعادتهم. حتى إنه يرى أعظم الأشياء كالعرش الأعظم والشمس الضخمة مأمورًا مسخرًا مثله.[2]

ويسلط النورسي الضوء على تلميذ القرآن بصورة جلية تبين مكانته الحقيقية في هذا الكون، فهو ليس مؤلهًا كما هو في الحضارة الغربية، وليس مهمشًا كما في بعض الثقافات، فهو يصف تلميذ القرآن الكريم، فهو «عبد» ولكنه لا يتنزل لعبادة أعظم مخلوق، فهو «عبد عزيز» ولكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره و إذنه فهو صاحب همة عليا وعزيمة صادقة.

(1) النورسي: الشعاعات، ص 4.
(2) النورسي: اللمعات، ص182.

وهـو «فقير» ولكنه مسـتغن عـن كل شيء بما ادخر له مالكـه الكريم من الثواب الجليل. وهو «ضعيف» ولكنه يستند إلى قوة سيده المطلقة. فلا يرضى تلميـذ القرآن الكريـم الخالص حتى بالجنة مقصدًا أو غايـة، فكيف بالدنيا الزائلة. فافهم من هذا مدى التفاوت الكبير والبون الشاسـع بين همة هذين التلميذين.[1]

لقد حاول النورسي أن يكفكف من غلواء الحضارة ونظرتها الخاطئة إلى الإنسان، ولهذا فهو يخاطب هذه الحضارة ويقول لها: إن الذي يتلقى الدرس منك، ويسترشـد بهديك يصبح «فرعونًا».. «طاغية» ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس الأشياء، ويتخذ كل شيء ينتفع منه ربًا له.

وتلميـذك هنا متمـرد أيضًا.. ولكنه متمرد مسـكين، إذ لأجـل لذة تافهة يُقبِل قدم الشـيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل والهوان. وهو «جبار» ولكنه جبار عاجز من ذاته لأنه لا يجد مرتكزًا في قلبه يأوى إليه.

إن غاية ما يصبو إليه تلميذك، وذروة همته: تطمين رغبات النفس وإشباع هواها، حتى إنه دسـاس يبحث تحت سـتار الحمية والتضحيـة والفداء عن منافعه الذاتية، فيطمئن بدسيسـته وخبيثة حرصه ويشـبع نهم غروره، إذ لا يحب حقًا إلا نفسه، بل يضحي بكل شيء في سبيلها.[2]

ويعـرض النورسي لنماذج من تلاميذ الفلسـفة القرآنية، ليعطي النموذج والمثـل، لمفهوم الإنسـان الصحيـح - في رأيه - أو على حد تعبيره: فإن شـئت فانظر لتلاميذ القرآن من الأولياء الصالحين، أمثال الشـيخ الكيلاني والشـيخ

(1) النورسي: نفس المرجع، ص 181.
(2) النورسي: نفس المرجع، نفس الصفحة.

الرفاعي والشيخ الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وانصت إليهم حينما يقرأون أورادهم، وانظر كيف أخذوا في أياديهم سلاسل الذرات وعدد القطرات، وأنفاس المخلوقات، فيذكرون الله بها و يسبحونه و يقدسونه.. تأمل كيف يتعالى ذلك الإنسان الهزيل الصغير الذي يصارعه أصغر مكروب و يصرعه أدنى كرب، وكيف يتسامى في التربية القرآنية الخارقة فتنبسط لطائفه وتسطع بفيض إرشادات القرآن حتى إنه يستصغر موجودات الدنيا من أن يكون مسبحة لأوراده، بل يستقل الجنة العظمى أن تكون غاية ذكره لله سبحانه، مع أنه لا يرى لنفسه فضلًا على أدنى شيء من خلق الله.. إنه يجمع منتهى التواضع في منتهى العزة.. ومن هنا يمكنك أن تقدر مدى انحطاط تلاميذ الفلسفة ومدى دناءتهم.[1]

ولقد أصاب كبد الحقيقة أحد الدارسين المعاصرين في تصويره لموقف النورسي من قضية الإنسان حيث يرى هذا الدارس، أن منهجية رسائل النور الشاملة تطلع الباحث على حقيقة واضحة وهي أن كاتبها وهو يمارس رسالته الإصلاحية، قد تناول بنسب مختلفة من الإفاضة والتفصيل والتعميق قضايا محورية من الفكر الإسلامي، قدم فيها خلاصة رؤيته لإعادة بناء الشخصية الإسلامية من خلال معالجته للإنسان المسلم الذي عاصره في تركيا في زمانه، والذي كان يتعرض لغزو فكري وحضاري يهدد إيمانه وأصالته.. ومجتمعه وأمته. فإن النورسي وهو يناجي ذاته أو يقومها، أو يحاور طالب النور و يربيه، أو يخاطب الإنسان المسلم المؤمن أو الذي أثرت عليه الأفكار الضالة أو يتناول مشكلات المجتمع والأمة بعمومها.. فإن أعمدة أساسية

(1) النورسي: نفس المرجع، ص 183.

يمكن ملاحظتها في البناء الفكري الذي أقامه في رسائل النور، وهذه الأعمدة تبدو شديدة الأهمية في البعث الجديد لهذه الأمة وهذا الإنسان.[1]

ومن زاوية أخرى بعد أن عرض مفكرنا لمفهوم الحضارة ولمكانة الإنسان في الحضارة المعاصرة، يذكر لنا أسباب تأخرنا عن الركب الحضاري في عدة أسباب أو على حد قوله: إن سبب تأخرنا وتدنينا وسوء أحوالنا إلى الآن ناتج مما يأتي:

1- عدم مراعاة أحكام الشريعة الغراء.

2- تصرفات بعض المداهنين تصرفًا عفويًا.

3- التعصب المقيت في غير محله سواء لدى عالِم جاهل أو جاهل عالِم!

4- تقليد مساوئ المدنية الأوروبية تقليدًا ببغائيًا بسوء حظنا أو سوء اختيارنا مما ولو تُركنا لمحاسن المدنية التي تستحصل بمشكلات ومصاعب.[2]

وهنا يضع النورسي يده على أهم مقوم من مقومات الحضارة وهو الدين أو عدم مراعاة أحكام الشريعة الغراء: فقد يقال إن الحضارة الأوروبية فصلت الدين عن الأخلاق، ولا يمكن أن ينكر على شعوبها حسن أخلاقها، وهذا صحيح، ولكن ما يصلح لحضارة أخرى، والدين مقوم أساسي لحضارات الشرق جميعًا كما أن العلمانية مقوم جوهري للحضارة الغربية به ارتقت وبه سادت، ولكن من الخطأ أن يعد ملازمًا لكل تقدم، ولم يجر التقليد الأعمى

(1) محمد رشدي عبيد: فكر سعيد النورسي «قراءة معاصرة» ص 475.
(2) النورسي: سيرته الذاتية، ص 87.

لبعض الدول الشرقية مثل تركيا إلا التبعية بعد أن كانت ردحًا طويلا للأمم الإسلامية رأسًا وأن نتيجة التقليد كما يقول «توينبي» مخيبة للآمال بعد أكثر من نصف قرن وأصبح التركي كائنا لا هو بالشرقي ولا بالغربي ولا يعد الغرب تركيا جزءًا من حضارتها، وأصبح التركي يخاطب الأوروبي بكلمات من إنجيله: (زمرنا لكم فلم ترقصوا، ونحنا لكم فلم تلطموا).[1]

إن لكل حضارة مقومات ذاتية، ومن الخطأ الظن أن مقومات أو فلسفة حضارة ما تصلح لحضارة أخرى، وحكمة «كليلة ودمنة» بصدد الغراب الذي أراد أن يقلد ابن آوي ما زالت سارية، فحينما نقول بضرورة الدين للأخلاق ليكون لها قاعدة راسخة أو ميتافيزيقا ثم ليحل مفارقة العمل في علم عمل كالأخلاق، فإننا نعني بذلك حضارات الشرق بعامة والإسلام بخاصة ولا نعني بذلك الغرب.[2]

إن معركة المسلمين في منهج النورسي ليست مع المسلمين عامة ولا مع الفرق الإسلامية خاصة، لأنه لا يؤمن أصلا بتوجيه المعارك مهما كان نوعها إلى داخل الصف الإسلامي، و إنما هو يوجه المعركة إلى خارجه فقط لأنه لا يعترف إلا بخندقين خندق الإيمان والرحمن وخندق الكفر والشيطان ولا سيما في مثل عصرنا الذي تكالبت على المسلمين فيه حضارة مادية شاملة ضخمة لها من أسلحة العلم والمال والجيوش والسلاح ما تستطيع أن تدمر أمامها كل شيء.

لم يجد النورسي مثل ذلك المنهج الشامل في أي عصر من عصور الفكر

(1) د. أحمد محمود صبحي: هاؤم اقرأوا كتابيه (محاولة لتجديد الفكر الإسلامي، دار المعارف الجامعية، ص 213.

(2) د. أحمد محمود صبحي: المرجع السابق، نفس الصفحة.

الإسلامي، ولا في أي علم من العلوم التي درسها، ولا الكتب الضخمة الكثيرة التي قرأها. و إنما وجدها في القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة وسنته الطاهرة، تمامًا كما واجه الرسول ﷺ وصحابته الأكرمين الجاهلية القديمة، فاستنبط منها منهجًا شاملا يتكلم بلغة العصر و يفكر من خلال عقلية العصر ويخطط لحل مشكلات العصر بعون رباني ملهم وفيض قرآني رشيد ومدد نبوي ثر، وهضم عميق لتجارب المسلمين عبر عصورهم، من خلال غزارة علم ونصاعة حجة وقوة إيمان.[1]

لقد عرف النورسي معالم الطريق لمواجهة المؤامرات على العقيدة والحضارة الإسلامية، - وكما يقول - وقد قررت قبل خمس وستين سنة إن إجابة هذه المؤتمرات الخطرة مستمدًا القوة من القرآن العظيم، فألهمني قلبي طريقًا قصيرًا إلى الحقيقة و إنشاء جامعة.

وقد وجدنا وسيلتين في هذا السبيل:

الوسيلة الأولى:

رسائل النور التي تقوي وشائج الأخوة الإيمانية بتقوية الإيمان والدليل على ذلك تأليفها في وقت الظلم والقسوة الشديدة وتأثيرها البالغ في أنحاء العالم الإسلامي وفي أوروبا وأمريكا - في الوقت الحاضر - وغلبتها على المتحلين بالنظام والفلسفة الملحدة، وظهورها على المفاهيم الإلحادية السارية كالفلسفة الطبيعية والمادية.[2]

(1) د. محسن عبد الحميد :النورسي متكلم العصر الحديث، ص 75.
(2) النورسي: الملاحق، ص 416.

الوسيلة الثانية:

إن جامع الأزهر مدرسة عامة في قارة إفريقيا فمن الضروري إنشاء جامعة في آسيا على غراره، بل أوسع منه بنسبة سعة آسيا على إفريقيا. وبذلك لئلا تفسد العنصرية الأقوام في البلدان العربية والهند وإيران والقفقاش وتركستان وكردستان فتنال شرف الامتثال بالدستور القرآني ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: 10].

وكذلك لتتصالح العلوم النافعة مع الفلسفة مع الدين وتتصالح الحضارة الأوروبية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة. ولتتفق المدارس الحديثة وتتعاون مع المدارس الشرعية في الأناضول.[1]

لقد كان سعيد النورسي مهمومًا بالإصلاح والبعث من جديد وهو يرى أن تلميذ القرآن هو الخليق بهذا البعث من جديد، ويبدو أن مشروعه الإصلاحي يتبدى لنا من خلال مسحه للقضايا المختلفة من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيره من مجالات عبر رسائل النور. وبعد هذا يجدر بنا أن نشير إلى موقف النورسي النقدي من فكرة «القومية» التي هي وثيقة الصلة بموضوع دراستنا؟.

موقف سعيد النورسي من فكرة القومية:

فكرة «القومية» من الأفكار التي شغلت ذهن النورسي وحاول أن يقدم لها رؤيته. وفي ظننا أن هذه الفكرة من الأفكار التي شغلت العديد من

(1) النورسي: المرجع السابق، ص 417.